كيف كانت:

العلاقات الإسلامية اليهودية
فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

بقلم
الدكتور/ ابراهيم عبد الرحمن عتلم
أستاذ م. الدعوة والثقافة الإسلامية
بكلية أصول الدين بالمنوفية
جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين .. جعل العاقبة للمتقين... ولا عدو ان إلا على الظالمين... الذين تنكبوا الصراط المستقيم... من المغضوب عليهم ... الضالين المكذبين.

والصلاة والسلام على خاتم الإنبياء، وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بأحسان الى يوم الدين.

وبعد

فقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن لايعيش الإنسان وحده بمعزل عن مجتمعه، فلا يستطيع أن يحقق وحده ضرورات الحياة اللازمة له ولا غنى له عنها... ومن هنا كان التعامل بين أفراد المجتمع لتبادل المنافع واستمراريتة الحياة..

واليهود من فئات المجتمع التى لا تنفصل عنه... ولكنها فئة شاذة فى التعامل مع الآخرين حيث يعتبرون أنفسهم... فوق الجميع حتى صور لهم تفكيرهم المريض أنهم" شعب الله المختار" أو كما سجل القرآن الكريم كتاب الخالق عنهم.. أنهم قالوا:" نحن أبناء الله وأحباؤه ".. ورد الله عليهم هذه الفرية بقوله .. قل فلم يعذبكم بذنوبكم.. بل أنتم بشر ممن خلق ..[1] وسجل أنانيتهم وظلمهم لغيرهم فى قوله...«.. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل...» يستبيحون كل شئ من الغير لهم من نفس ... ومال... وعرض... وغير ذلك، وقد رد الله عز وجل عليهم ذلك أيضا بقوله سبحانه «... ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» [2] وبسبب هذه الأفترا ءات وذلك الشذوذ فى التعامل عاقبهم الله تعالى وأثبت القرآن الكريم ذلك:« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا... وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل.....[3]

١- سورة المائدة من الآية (١٨). ٢- سورة آل عمران الآية (٧٥).

٣- سورة النساء الآيتان (١٦٠-١٦١).

فياترى كيف كانت العلاقات الإسلامية اليهودية فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم؟

هذا مانريد إلقاء الضوء عليه من خلال ذلك البحث.. تسترجع فيه الأحداث من قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم ومبعثه...

١- كيف قدم اليهود إلى جزيرة العرب عامة وتوطنهم فى يثرب خاصة مع بيان أحوالهم بعد قدومهم : إجتماعياً... واقتصاديا... وسياسيا... ودينيا.

٢- بيان أسس العلاقات ومبادئها فى الإسلام بين المسلمين، وبين المسلمين وغيرهم من اليهود خاصة : فى حال السلم، وفى حال الحرب والمواجهة.

٣- وفيها نرصد كل جولة من جولات الصراع فى التعامل بين الدين الإسلامى ورسوله الكريم والعصابات اليهودية التى كانت موجودة فى الجزيرة العربية.. والتى ترسم صورة مشرقة لسماحة الإسلام ونبيه وتسامح المسلمين وحرصهم على الأمن والسلام والوفاء مع ماكان عليه اليهود من التمرد ونكث العهود وتدبير المكائد..

وفى نفس الوقت الحزم والصرامة فى قمع المتمردين الذين يعلنون نقضهم للعهد.. ويتعاونون مع الأعداء وإلحاق الأذى بالرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، عندما تتأزم الأمور بين الطرفين وتحدث المواجهة بأسبابها.. وفى ذلك يتجلى عدل الإسلام وأهله فى معاملة اليهود قبل الحرب... وفى أثنائها.. وبعد الانتهاء منها.وإبراز مايترتب على كل مواجهة من نتائج... كل ذلك لتكون أساسا فى التعامل لمن يأتى بعد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى وقتنا الحاضر وإلى أن تقوم الساعة..

وأرانى أسلمت نفسى إلى تأمل مستغرق.. طويت فيه أبعاد الزمان والمكان إلى مسرح الأحداث الكبار التى عاشها الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وترجموا مواقف لم تكن خططا موضوعة. وليست من صنع البشر ولكن تكلفت بها العقيدة الحقة وكانت بتدبير من خالق البشر، وسطرت لنا من المواقف التى تربط الماضى بالحاضر.. الماضى الحى.. والحاضر المشهود...فما تتجلى رؤية الأمس إلا فى غمرة من

ظلال اليوم... ولانسترورح عطر التاريخ لتلك الحقبة، إلا مشوبا بأنفاس الواقع الذى تعيشه أمة الإسلام فى صراعها مع أعداء النور وحزب الشيطان...» ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا... »[١] لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا... اليهود والذين أشركوا...»[٢] والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون»[٣] وبالله التوفيق هو حسبنا ونعم الوكيل.

دكتور / ابراهيم عبد الرحمن عتلم

أستاذ مساعد الدعوة

كلية أصول الدين المنوفية

جامعة الأزهر

١- سورة البقرة من ألآية رقم (٢١٧).

٢- سورة المائدة من الآية رقم (٨٢).

٣- سورة يوسف من الآية رقم (٢١).

كيف وصل اليهود إلى المدينة

جدير بنا قبل الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية ، أن نلقى الضوء على قدوم اليهود إلى الجزيرة العربية بعامة وإلى يثرب بصفة خاصة، ونوضح جانبا من نشاطهم، وأحوالهم قبل الأسلام ، لتكون الصورة واضحة.

تحدثنا الكتب التاريخية أن اليهود قدموا إلى الجزيرة العربية، وحلوا بيثرب قبل الهجرة النبوية بمئات السنين وذلك:« بعد الحرب التى وقعت بينهم وبين الرومان سنة ٧٠م وانتهت بهزيمتهم وتفرقهم بين الأمصار وتشتتهم فى بلاد العالم فحل فريق منهم فى جزيرة العرب واستوطنوا« يثرب» وتجمع هؤلاء اليهود فى « يثرب» فى ثلاث قبائل كبرى هى :بنو قينقاع،. وبنو النضير... وبنو قريظة، وتفرع من هذه القبائل فروع كثيرة.

فمن فروع بنى قريظة بنو هدل، وبنو زباع، ومنهم يهود بنى عوف، ويهود بنى ساعدة ، ويهود بنى ثعلبة، وبنى حنيفة، وبنى الحارث، وغيرها ، وقد تفرقت القبائل وفروعها فى وسط يثرب ونواحيها ، فمنهم من أقام بالعالية بوادى بطحان وهم بنو النضير، ومنهم من أقام فى منطقة مهزور بجنوب المدينة وهم بنو قريظة، وأما بنو قينقاع فكانوا يقيمون فى محلة خاصة بهم وسط يثرب.[١]

وكانت أماكنهم وقراهم محصنة، ويعيشون فيها متكتلين كما أشار القرآن الكريم «لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى.» [٢]« وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله..»[٣] وقد صور ذلك الشيخ محمد أبو زهرة في كتابة خاتم النبيين نورده بايجاز حيث

١- وفاء الوفا فى أخبار دار المصطفى ص ١١٦، تاريخ اليهود فى بلاد العرب د. إسرائيل ولفنسون ص٩.

٢-سورة الحشر من الآية رقم(١٤). ٣- سورة الحشر من الآية رقم(٢).

يقول: « كانت أرض العرب مأوى لأصحاب الديانات الذين فروا من الاضطهادات كاليهود الذين فروا من التتار والرومان من بعدها إلى بلاد العرب حيث وجدوا الملاذ إبتداء في أرض اليمن... وقد اعتنق اليهودية بعض اليمنيين، وقد عاشر اليهود الأوس والخزرج في موطنهم الأصلي باليمن،ولما هاجر أولئك الوثنيون إلى يثرب هاجر اليهود أيضا إلى ما حول يثرب ، فهاجر بنو النضير وبنو قريظة، وبنو قينقاع وخيبر ولم يندمجوا في الشعب العربي بل اتخذوا حصونا تحتويهم حيث أقاموا وانتجعوا الخصيب من الارض فكان لهم النخيل والتمر في يثرب .. وكانوا كشأنهم أثرين يحبون أنفسهم ولا يتعاملون مع العرب، وإن تعاملوا معهم ينجسونهم، وخانوهم عهودهم كما قال الله تعالى « ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤده إليك إلا مادمت عليه قائما،، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل.. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون[١] فالعرب الذين آووهم وأنزلوهم أبرواهم عليهم المعاملة الطيبة، ونظروا إليهم على أنهم دونهم وأنهم أميون، والأمي يؤكل حقه في زعمهم الباطل ومنطقهم الأثيم، وجانبوهم وتحيزوا في حيز دونهم ، وعاشوا بجوارهم يأخذون ولا يعطون»[٢]

وبهذا استقرت أوضاع اليهود في يثرب ، وكونوا مع زعماء العرب علاقات ومحالفات ، وكان بعض زعماء العرب يشكل فرقا منهم لحراسته مقابل إتاوات يأخذها اليهود منهم كل عام، كما كانت لهم أماكنهم الخاصة بعبادتهم وتعليمهم تسمى « المدارس» يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم كما كانت لهم أعيادهم الخاصة بهم وتشريعاتهم التي تنظم أمور دينهم ودنياهم.

أحوالهم الاقتصادية:-

أما عن أحوالهم الاقتصادية، فقد كان اليهود اكثر غنى وأموالا من العرب ،

١- سورة آل عمران من الآية رقم(٧٥).

٢- خاتم النبيين ص ٥٦ ، ٥٧ وانظر أيضا صفحات ٣٤٦ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦.

وكانوا يتحكمون في كثير من الجوانب الاقتصادية حيث كانت الصناعات في أيديهم، وكانت عامة بني قينقاع« صاغة»[1] وكانوا أكثر طوائف اليهود مالا، ولهذا الانتعاش الاقتصادي كانوا يقرضون أهل يثرب الأموال بالربا والرهن وكانوا حرصين على استمرار سيطرتهم الاقتصادية بأي شكل ، ولهذا كانت المادة تتحكم في جميع علاقاتهم ، فإن كان في العلاقة كسب مادي ومنفعة شخصية حرصوا عليها ، وإن تعرضت المصلحة المادية لأي خطر أقاموا الحرب وأشعلوها بين القبائل العربية ليضعفوا فتبقى لهم السيادة والسيطرة الاقتصادية.

وكان لهذا الأسلوب تأثيره فتهود بعض العرب بل وصل الأمر ببعض من كان لا يعيش له ولد أن ينذر إذا ولد له ولد وعاش أن يهوده... فكان في المدينة أيضا عدد من يهودالعرب الذين دخلوا اليهودية بهذه الطريقة أو غيرها.

وكان بعضهم يشتغل بالتجارة والزراعة حتى تستطيع القول بأنهم سيطروا على جميع المناشط الاجتماعية والاقتصادية علاوة على التأثيرات الدينية.

يقول الأستاذ عزة دروزة :«عرف العرب الحجازيون أهل الكتاب من يهود ونصارى في بلاد الحجاز والشام، واحتكوا بهم وأخذوا عنهم كثيرا من الأفكار والمعارف ، ومنهم من دان باليهودية والنصرانية وتضلع باللغة العبرانية، واطلع على ماعند اليهود والنصارى من كتب، وقد عرفوا كذلك ماكان عليه أهل الكتاب من خلاف وشقاق في الأمور الدينية والمذهبية، وكان لكل ذلك صدى وأثر في نفوسهم وأذهانهم[2]. ثم يقول : « وكان العرب يعتمدون على علمائهم ويثقون بهم ولذا احتج الله تعالى على المشركين بمعرفة علماء بني اسرائيل بصدق القرآن الكريم كقوله عز جل :« أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل [3] وقوله سبحانه :« الذين آتيناهم

١- يصوغون الذهب، ويتاجرون فيه.

٢- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم/ محمد عزة دروزة جـ١ ص ٣٢٧.

٣- سورة الشعراء (١٩٧).

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. »[١] ثم يقول « ومن الطبيعي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد وقف منذ البدء موقف المسالم المتحبب من الكتابيين في مكة... ونعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ألهم هذا الموقف قبل نبوته أيضا، وإذ كان بينه وبين بعض الكتابيين صلة وُدٍّ ومبادلة عطف وتصديق»[٢] . ومن هنا وقف اليهود والنصارى من الدعوة المحمدية منذ البدء موقفا طيبا بل إن بعضهم قد آمن واتبع كما في قوله تعالى :« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون»[٣]

تلك صورة سريعة عن صلة اليهود بالجزيرة العربية وأحوالهم فيها قبل الأسلام[٤].

مبادئ الإسلام في العلاقات :

قبل الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية وأطوارها نوضح في إيجاز أبرز مبادئ الإسلام في إنشاء العلاقات بين المسلمين وغيرهم لنرى إلى أي مدى تسامح الإسلام وأهله وإلى أي حد كان غيرهم متعسفين.

من المعلوم أن الإسلام دين الله سبانه ورسالته إلى خلقه أجمعين بعث به محمدا صلى الله عليه وسلم فكانت بعثته اللبنة الأخيرة في زوايا هذا البناء الشامخ، فجاءت شاملة وعامة وصالحة لكل زمان ومكان، يتضح ذلك من مبادئها التي أرستها للعلاقة بين الناس وفي مقدمة ذلك :

١- سورة البقرة من الآية (١٤٦).

٢- سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم/ عزة دروزة ص ٣٣٦.

٣- سورة الاعراف الآية (١٥٧).

٤- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي ص ١٣٨/١٣٢ وهامش ص١٣٣.

١- أن الناس جميعا عباد الله هو خالقهم... ورازقهم... ومدبر أمورهم.. ومصرف أحوالهم.:. بيده مقاليد الأمور كلها... وهو على كل شئ قدير.،، لاراد لقضائه، ولا معقب لحكمه، هو المعز وهو المذل وهو المعطي والمانع. يتجه الجميع إليه ابتغاء مرضاته... والكل أمامه سواء فلا فضل لأحد على أحد إلا كما قال سبحانه:«« إن أكرمكم عند الله أتقاكم. »»(١) وهو سبحانه رب العالمين.. لارب بني إسرائيل فحسب كما يزعم اليهود ، وليس له ولد كما يدعون هم والنصارى:« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه..»(٢).

٢- الأخوة لجميع الناس.. لأن أباهم واحد هو "آدم" وأمهم واحدة هي " حواء" قال سبحانه : « ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء.»(٣) لذلك يتعارفون ولايتناكرون، ويتعاونون ويتحابون، ولا يتخاصمون ولا يتدابرون لقوله عز وجل :« ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا..»(٤) وقد أعلن الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم في أكبر تجمع إسلامي في حجة الوداع في خطبته الجامعة بعدفات : « أيها الناس إن ربكم واحد.. وإن أباكم واحد... كلكم لآدم وآدم من تراب.. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى، .. ألاهل بلغت، اللهم اشهد...»(٥).

فالمسلم أخو المسلم وكذا كل إنسان يهوديا كان أو نصرانياً أو غير ذلك.

٣- الإنسان- أيا كان- في الإسلام له كرامته وسموه وعلو قدره حيث قال الله عز وجل:« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»(٦) ونصوص أخرى كثيرة توضح ذلك.

١-سورة الحجرات من الآية رقم(١٣). ٢- سورة المائدة من الآية رقم(١٨).

٣- سورة النساء من الآية رقم(١). ٤- سورة الحجرات من الآية رقم (١٣).

٥- القول المبين في سيرة سيد المرسلين د/ الطيب النجار ص٣٣٩.

٦- سورة الاسراء الآية رقم(٧٠).

ويبن ذلك الرسول الكريم في أكثر من موقف فمن ذلك ماروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال:" مر بنا جنازة فقام لها النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا.... فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودى، قال صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم الجنازة فقوموا إن الموت فزع"[١].. يتضح من ذلك أن الإنسان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم مكرم حيا وميتا، مسلما أو غير مسلم. وقوله صلى الله عليه وسلم:" من لا يرحم لايرحم، إرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء"[٢]

فأين هذا ممن داسوا كرامة الإنسان.... وسفكوا دماءه.... وانتهكوا عرضه.... وأكلوا ماله بالباطل فى الشرق والغرب على السواء؟

٤- اهتم الإسلام بالأخلاق والتربية الخلقية حتى تكون أساسا فى التعامل بين الناس وجاءت النصوص فى القرآن الكريم والسنة المطهرة فأولت هذا الجانب عناية فائقة من ذلك قوله سبحانه:« إن الله يأمر بالعدل والإحسان.. وإيتاء ذى القربى... وينهى عن الفحشاء... والمنكر... والبغي... يعظكم لعلكم تذكرون"[٣] ويكاد الرسول صلى الله عليه وسلم يحصر بعثته... وأهداف رسالته في مكارم الأخلاق فيقول:«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٤] فالصدق والأمانة والعدل والوفاء والإحسان والبر والعفو والكرم والتسامح والشجاعة والعفة إلى غير ذلك كلها أخلاق سامية ربى الإسلام عليها أبناءه... والتزمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فانطلقوا بها إلى مشارق الأرض ومغاربها يعاملون الناس فى ضوئها... ويقيمون علاقاتهم مع الناس على أسس منها .

٥- الإسلام دين السلام يرسى قواعده بين الناس، ويقيم علاقاته معهم على أساسه،

١- عون البارى شرح صحيح البخارى جـ٢ ص ٦١٢.

٢- عون البارى جـ٦ ص ١٣٩. ٣- سورة النحل الآية (٩٠). ٤- رواه مالك فى الموطأ.

ولذلك لا يلجأ الإسلام في حل المشاكل إلى الحرب إلا حين تعجز الوسائل السلمية الأخرى وتصبح الحرب ضرورة لا بد منها.... ومع هذا فإذا قامت الحرب في ضرورة فإن باب السلم مفتوح يدعونا الله سبحانه وتعالى إليه ويأمرنا به إذا طلب المحاربون ذلك قال عز وجل: " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم، وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين"(١) ثم قال:" لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون"(٢)

وحول هذه المبادئ يقول الدكتور يوسف القرضاوى مستشهدا بما قاله"غوستاف لوبون في كتابه- حضارة العرب- الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم" ثم يقول: لقد احترمت الشريعة عقائد الآخرين ورفضت الإكراه في الدين رفضا باتا ، وأعلن القرآن هذه الحقيقة:" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"(٣) وخاطب الله رسوله بقوله:" أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين"(٤) ولهذا قرر المؤرخون بكل يقين أن المسلمين لم يجبروا شعبا ولا فئة من الناس على اعتناق الإسلام بحال، وقد كانوا قرونا عديدة يملكون من القوة والنفوذ ما يغريهم بذلك لو لا سلطان الشريعة فوق رءوسهم .. ووازع الإيمان في صدورهم.

ثم يستشهد أيضا بما قاله- روبرتسون-:"إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغيرة وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرا

١-سورة الأنفال الآيات/٦١/٦٢.
٢- سورة الممتحنة الآيات ٨/٩.
٣-سورة البقرة من الآية رقم(٢٥٦).
٤- سورة يونس من الآية رقم (٩٩).

لدينهم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا فى التمسك بتعاليمهم الدينية"[١]، كما أشار إلى المبادئ الأخرى فى وضوح[٢]، وقد تناول فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة هذه المبادئ بالتفصيل فى كتابه القيم« خاتم النبيين »[٣]

تلك نبذة عن مبادئ الإسلام وأسسه فى إنشاء العلاقات وإقامتها بين المسلمين مع بعضهم البعض، ومع غيرهم، يتجلى من خلالها عظمة الإسلام وسمو مبادئه حتى لتجد أرقى ما وصلت إليه الإنسانية فى العلاقات وحقوق الإنسان أقل مما دعا إليه الإسلام وأرسى مبادئه وطبقها بين الناس، وكيف يتساويان.. وهذا شرع الله الخالق... وذلك شرع الآدميين المخلوقين؟

« العلاقات الإسلامية اليهودية»

فى ضوء ما سبق من تلك المبادئ الإسلامية العامة، وفى ظل هدى النبى الأعظم صلى الله عليه وسلم يأتى الحديث عن العلاقات الإسلامية اليهودية فى عهد رسول الله عليه وسلم.والذى يتتبع هذه العلاقات وأطوارها يستطيع تقسمها إلى قسمين:

١- فى السلم　　　　٢- فى الحرب

وسيرى القارئ أن كل قسم من هذين القسمين يمر ببعض الوقائع التى كان لها خصائصها ومميزاتها، على نحو ما يلى:

أولا: فى السلم:-

ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:" ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه

١- شريعة الاسلام د/ يوسف القضاوى ص ٥٢.　　٢- أنظر المرجع السابق ص ٦١/٥٤.

٣- انظر خاتم البيين ص ٦٥١-٦٧٢.

يوم القيامة صرفا ولا عدلا. وقال:" المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يقبل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثا فعلى نفسه، ومن أحدث حدثا أو آوى محدثا فعلية لعنة الله والملائكة والناس أجمعين"

وثبت عنه أنه قال:" من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمدة أو ينبذ إليهم على سواء "وقال :" من أمّن رجلا على نفسه فقتله فأنا برئ من القاتل" وفي لفظ "أعطى لواء غدر" قال:" لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به بقدر غدرته"يقال :هذه غدرة فلان بن فلان ، ويذكر أنه قال:"ما نقض قوم العهد إلا أديل عليهم العدو"[١] من هنا وفي ضوء ما تقدم من المبادئ والأسس التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن الإسلام في وضوح احترام المسلم لأهل الذمة وحمايته لهم وحفاظه عليهم وعلى أرواحهم ومعاهداتهم وأمره بالوفاء لهم بما عوهدوا عليه، وتحذيره من مغبة خيانتهم والغدر بهم، ووعيده الشديد لمن يقع في شئ من الخيانة والغدر بما عاهدهم عليه، في ضوء هذا كله نجد التطبيق العلمي من رسول الله عليه وسلم وأصحابه في معاملة اليهود إبان الهجرة إلى المدينة. فقد صالحهم رسول الله عليه وسلم ووادعهم على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، كان ذلك في السنه الأولى من الهجرة، وقد كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتابا بذلك عاهدهم فيه وأقرهم على دينهم وشرط لهم واشترط[٢] عليهم فكان ممن جاء فيه: وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين لا تتناصر عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم

١- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن هيشم جـ٢ ص ٧٠.

٢- مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عبد الوهاب ص ١٣٩.

بعضا... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما دأمو محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين.. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبني ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبة وجفنة وبني الشطيبة مثل ماليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد. ولا ينحجز على ثأر جرح[٢] وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم، وإنه لا يحول هذا الكتاب دونه ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وأن الله جار لمن بر واتقى».[٣]

هكذا كان عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة، هم على دينهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، مطمئنون لجيرانهم، متحدون معا على أعدائهم، ويد

١- يوتغ : يهلك.

٢- كذا فى ابن هشام، وفى النهاية لما تحجز جرحه للبرء انفجر.

٣- تهذيب سيرة ابن هشام ص١٣٧، والبداية والنهاية لابن كثير جـ٣ ص ٢٤٦.

واحدة على من أراد بالمدينة شرا، ثم يتعاون أهل كل فريق أوحى فى نفقاتهم وفى دياتهم، ومن أراد شرا فعلى نفسه وأهله، والله سبحانه مع المتقين من هؤلاء وأولئك، أما الظالمون من هؤلاء وأولئك فعليهم غضب الله ولعنته، والحكم والرد فى كل قضية إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم.

وتدل هذه الوثيقة على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لليهود، وعلى أن أساس الدولة قائم على العدالة الاجتماعية، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس. ودفع أذى الأشرار عن المجتمع هو أبرز الشعارات التى تنادى بها دولة الإسلام[١] ونورد هنا نظرة وتعليق على هذه الوثيقة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة نوجزه فيما يلي :-

يقول الشيخ: هذه وثيقة النبى صلى الله عليه وسلم التى نظم بها المجتمع الجديد لسكان المدينة، لا فرق بين مهاجرين وأنصار، ولا فرق بين مؤمنين ويهود، ويلاحظ فيها:

أ- أن النبى صلى الله عليه وسلم بحكم النظام الجديد الذى أنشأه فى المدينة صار هو الرئيس الأول لتنفيذ ما اشتملت عليه الوثيقة، ولذلك لم يبح لطائفة من اليهود أن تخرج فى حرب إلا بإذنه حتى لا تتورط فى أمر يضطرب به أمر هذا المجتمع..

ب- أنه بمقتضى هذه الوثيقة يصير اليهود والذين يقيمون بيثرب رعية واحدة فلا تكون لهم أحكام خاصة بهم لا تسرى على غيرهم، ولا يختصون بنظم لا تنطبق على غيرهم، وذلك مع الاحتفاظ بدينهم، تراعى فيه حرمة العقيدة وأن لا يكون لأحد سبيل عليهم فيها ....

١- السيرة النبوية د/ مصطفى السباعى ص ٨٠.

جـ- إن العهد كان أساسه التعاون بين العشائر...

د- أنه مع التعاون بين العشيرة، هناك تعاون عام بحيث يتضافر المؤمنون جميعا.. وأن الحلف يوجب أن يكون عدو النبى صلى الله عليه وسلم عدوا لليهود فلا يجار قرشى ولا من يناصر قريشا، فعلى اليهود ألا يوالوا المشركين لأنهم أعداء الله تعالى وأعدائهم، وذلك لأن الميثاق يجعل أهل المدينة مسلمين ويهود أهل ولاء واحد، عدوهم واحد.. ومناصرتهم واحدة.. وذلك ليكون أمن الجميع واحدا..... ثم يقول:

فهل وفى به اليهود !!!

إن الأمور التى تجرى كفيلة بالجواب مع ملاحظة أن الأمر يوجب الوفاء من الجانبين، وإن أخل أحدهما ذهبت الحقوق التى تضمنتها الوثيقة له، وإذا كان الإخلال فيما يتعلق بالأمور الخارجية وهى موالاة اليهود للمشركين على المؤمنين، فإنه فى هذه الحالة تزول صفة الجوار، ويكون من الواجب على من ينكث أن يترك الجوار ويتخلى عن الإقامة فى المدينة، وحل للطرف الآخر أن يخرجه طوعا أو كرها[1] وقد أدرك المسلمون فى ظل هذه المبادئ والأسس أن الإسلام بكتابه العظيم ورسوله الكريم يربيهم على التسامح وسعة المخالفين والإحسان إليهم والبر بهم، وينهاهم عن أن يحملوا لهم أى كراهية أو حقد أو أن ينالوهم بأى إساءة،كما أمرهم بالوفاء بالعهود والمواثيق، وحذرهم من نقض عهدهم بأى صورة من الصور[2] قال تعالى:« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون»[3]

وقد جعل القرآن الكريم الخروج عن فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية

١-أنظر: خاتم النبيين ص ٦٧٤-٦٧٦.

٢- لمحات فى الثقافة الإسلامية/ عمر عودة الخطيب ص ٢٧٩.

٣-سورة النحل الآية(٩١).

كلها حيث قال جل شأنه «إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون... الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون... فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون.. وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين »(١)

* وكان المسلمون أول من وضع قاعدة الوفاء بالعهود والمواثيق ثقة منهم بأن الوفاء بالعهد فى ذاته قوة فوق أنه عدالة وفضيلة، وهو دعامة أساسية من دعائم السلام، إن العهد فى ذاته قوة والتزامه قوة لأنه يؤمن فيه جانب الأعداء والأعتداء، وأمن الاعتداء يثبت دعائم السلام، والسلام تطمئن فيه الشعوب وتستقر(٢).

هذا ما كان من الإسلام فى أول عهده نحو اليهود وغيرهم فى المدينة..

فماذا كان من اليهود نحو الإسلام ورسوله؟

أولا : التبشير .. جاء فى التوراة وغيرها من كتب اليهود مايبشر بمجئ النبى صلى الله عليه وسلم ويعرف به وبصفاته من مثل ماروى عن زيد بن أسلم قال : بلغنا أن عبد الله بن سلام يقول : "أن صفة رسول الله فى التوراة، ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولاصخب بالأسواق، ولايجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة المتعوجة بأن يقولوا لاإله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صما وقلوب غلفا، فبلغ ذلك كعب الأخبار فقال : صدق عبد الله بن سلام (٣).

من أجل ذلك راح اليهود يعلنون بين حين وآخر عن قرب ظهور النبى الأخير

١- سورة الأنفال الآيات من (٥٥-٥٨).

٢- لمحات فى الثقافة الأسلامية مرجع سابق ص ٢٨٤.

٣- الطبقات الكبرى لابن سعد جـ١ ص ٨٧.

ويتباهون بذلك ويهددون بالانتماء إليه، وكانوا يطلبون من الله عز وجل النصر على أعدائهم بالنبي المنعوت في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة.

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي كلاهما من الدلائل عن طريق عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري قال : حدثني أشياخ منا قالوا لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا لأن معنا يهود وكانوا أهل كتاب وكنا أصحاب وثن، وكانوا إذا بلغهم منا مايكرهون قالوا إن نبيا ليبعث الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقاتلكم معه قتل عاد وارم، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم اتبعناه وكفروا به ففينا والله وفيهم أنزل الله : "وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به .." [1].

كان اليهود يبغون من وراء ذلك التبشير بالرسول الجديد والتهديد به مزيدا من السيطرة على العرب. واحتكار المقدرات المالية والمعنوية، وكانوا يظنون أنه سيكون منهم ومن سلالتهم، ولم يكن الكثير من أحبار اليهود يتوقعون أن النبي الجديد سيجيء هذه المرة من سلالة أخرى غير السلالة اليهودية، وأنه بانتمائه العربي سيشكل خطرا على وجودهم المستقل، وبدعوته العالمية المقترحة سيكتسح تجمعاتهم القومية المغلقة، وعبادته العادلة الواضحة سيفضح طقوسهم وأسرارهم التي يرتزقون منها ويضمنون بقاءهم في المراكز العليا لبني قومهم.

ثانيا : الكيد - وما أن جاء الموعد .. وحل الأجل المضروب في التوراة والإنجيل، ولم يظهر في اليهود النبي الذي ظنوه منهم، وولد محمد صلى الله عليه وسلم يحمل علامات النبوة المادية والمعنوية حتى بدأ اليهود يتخوفون من أن تخطئ ظنونهم. وألا تكون النبوة فيهم فيصابون بخسارتين، وأصبح الطفل الذي سيبعث إلى

١- فتح القدير/ الشوكاني جـ١ ص١١٢/١١٣ تفسير الآية ٨٩ من سورة البقرة، وانظر خاتم النبيين ص ٣٤٧.